

الشيخ عبد الله العلايلي يتحدث عن:

اللغة ومشكلاتها التاريخية والراهنة

ورسّخها كقوانين عامة للتاريخ في كتابه الثالث «تاريخ الحسين، نقد وتحليل».

وعلى المسرح السياسي اللبناني، كان لخطب العلايلي المنبر الأرفع الذي طاف المناطق اللبنانية كافة، ملاحقاً الوقائع والأحداث. ولا سيما في بيروت وزحلة وطرابلس وبيعلبك. كلماته كانت تلهب الجماهير حاسة واندفاعاً لما تحويه من نبرات خطابية رائعة. وفي مقالاته العديدة التي كانت تنصدر الصحف والمجلات كان العلايلي من خلالها يلاحق الحدث بكل جرأة وإقدام، جاعلاً من نفسه المرأة الصقيلة التي تعكس آمال الشعب وطموحاته. فكان المشارك الفعّال في الأحداث السياسية، ينحت المجرى العام لمسارها الاجتماعي.

صدى فكره القومي وتطلعاته وتوقعاته للمستقبل العربي تجدها منتشرة في جميع كتاباته، لا سيما في كتابه «دستور العرب القومي» و«العرب في المشرق الخطر».

الشيخ عبد الله العلايلي من الشخصيات الفكرية اللبنانية والعربية الهامة التي تميّزت بالعمق والانفتاح، وتركت الأثر الكبير في تاريخ الفكر العربي المعاصر، لا سيما في الفترة الممتدة من أواخر الثلاثينات وحتى أواخر السبعينات. هذه الحقبة التاريخية للثقافة العربية، كان العلايلي يمثل القطب الأبرز والأمين فيها. هذا التفرد للعلامي تجلّى في الجدل الكبير الذي رافق كتبه التي صدرت، لما تحويه من مواقف فكرية ودراسات وأبحاث معمّقة وانفتاح جريء. ولا سيما دراساته اللغوية التي تضمنها كتابه الأول «مقدمة لدرس لغة العرب» والتي عمّق دلالتها في «المعجم الكبير».

كما كان لكتاباته التاريخية وما أعطاه من تفسير جديد لمجرى التاريخ الصدى الواسع على مستوى الوطن العربي. هذه النظرات التاريخية أطلقها في مقدمة كتابه الثاني «سمو المعنى في سمو الذات، أو أشعة من حياة سيدنا الحسين». ثم عمّق مفهومها

- ولو بحدود معينة، إذا أمكن أن تحدثنا عن مرحلة العشرينات أو الثلاثينات.

- صدى العشرينات وحتى أوائل الثلاثينات يبقى ذكريات طلابية، مع الشيوخ ومع حركة النشاط العلمي في الأزهر آنذاك لا أكثر ولا أقل؛ ماذا يُدرّس؟ ماذا يتلقى الطالب؟ وكيف يكون التلقي - النشاط من داخل الدروس وفي أماكن الدروس، أي المساجد وما يحف بها. هذه كلها أمور تتعلق في فترة العشرينات وحتى أوائل الثلاثينات، طابعها طفلاني أكثر ما هو شيء آخر. رغم أنني في أواسط العشرينات أدركت التفاعل الوطني في مصر وفي القاهرة بالذات، وانبشاق ما يعتبر تسويقاً لثورة مصر في سنة 1919. تأوّجت في سنة 25 وفي سنة 26. إنها ليست مشاهدات حميمة أو صميمة لأنها كانت في أولية عهدي بها. ولكن بعضها كان في وعيي وإدراكي.

بعد ذلك في أواسط الثلاثينات بدأ نشاطي بشكل توجيه ووعظ وإرشاد من خلال تدريسي في الجامع العمري الكبير في بيروت في سنة 36 - واستمر الحال في التدريس مدة ثلاث سنوات ثم انتجت في ذلك التاريخ كتاب «مقدمة لدرس لغة العرب» وهو أول كتاب صدر لي في سنة 1938 في مصر.

كان هدفي من هذه الدراسة هو، قضية مستقبل اللغة العربية وتطورها كي لا تتجمد وتتجبر، طرد عوامل الجمود عن كنهها. تأملت كيف نُصّت العربية في الماضي، في قديمها القديم. أو في أوليتها وعنفوانها، واستعمال العنفوان هنا هو بمعناه الصحيح، وليس بالمعنى الذي يطلقه الناس اليوم، أي بمعنى القوة، وهذا خطأ. فالعنفوان معناه البدء أو الأوليّة. إنهم غلطوا حين أخذوا قول العرب: في عنفوان الشباب على أنه قوّة الشباب. ليس العنفوان بمعنى القوّة؛ أطلقت هكذا بشكل مجازٍ مرسل للتجاوز، فأصبحوا يطلقون العنفوان على كل ماله

كتابه أين الخطأ، الذي صدر في سنة 1977 كان محاولة منه للإصلاح عن طريق تحديث النظرة التعاملية في الفقه الإسلامي، وطرح الخطى التي سار عليها النبي محمد، على أنها الحل الوحيد للمشاكل الاقتصادية التي تعترض العالم اليوم.

في مجمل كتاباته، جسّد الشيخ عبد الله العلايلي العمق الفكري للباحث. فهو لا يكتفي بالظواهر من الأشياء، بل يغوص إلى الأعماق، منقباً عن الخلفيات والقوانين التي تتحكم في هذه الظواهر. وعندما تنكشف له بواطن الأمور وخفاياها بشكل عقلي وعلمي مركّز، يعلنها واضحة، ساطعة بكل جرأة واندفاع وتجرد. وبإعلانه هذا، لا يكتفي بتوضيح الماضي والحاضر. بل يحاول رسم حدود المستقبل من خلال استشفاف رائع لمسار هذا المستقبل مع ما يحمله من حقيقة علمية وافتتاح كبير.

وبشكل موجز، فالشيخ عبد الله العلايلي يمثل موسوعة فكرية حيّة، حوت من معالم الماضي الشيء الكثير، وواكبت عصرها وحاضرها بكل انفتاح، واطلّت على المستقبل بكل جرأة ورهافة واستشفاف، وفي كل هذا كان انموذجاً حياً لتجلي الفكر وابداعاته المميزة.

الشيخ عبد الله العلايلي يتحدث عن طفولته وعن اللغة ومشكلاتها التاريخية والراهنة⁽¹⁾.

- شيخ عبد الله: هل لك أن تحدثنا عن سنوات دراستك الأولى.

- لمثل هذا الحديث، يجب أن يكون المرء مهيباً نفسياً لتداعي الأفكار مع القديم القديم. إنها الذكريات. والذكريات هي صدى السنين، ربما يكون هذا التعبير فنياً، إلا أنه تعبير موضوعي. فهذا الرجوع، أو الإرجاع، عبارة عن متفرقات من هنا وهناك، ومن على رؤوس الأكام، وأنت تحاول التقاطها الآن.

إلى نتائج لو طبقت اليوم لما بقي في العربية أية مشكلة تعاني منها.

- هل لك أن تعطينا أمثلة على ذلك، شيخ عبد الله.

- الآن مثلاً، مما نعاني منه مشكلة القراءة في العربية. فكلنا يقرأ كتاباً ما للتسلية أو الثقيف، أو لأية غاية من الغايات. فهل نعرف القراءة؟ ولا تستغرب هذا السؤال. إذ أنه من أصعب ما يكون في اللغة العربية هو قضية القراءة. وأنت تجدها سهلة، ولا تجد فيها أية مشكلة. فالقراءة الحقيقية صعبة للغاية. لأنه عندما تريد أن تحرك عين الفعل، لا بد لك من أن تعرف من أي باب هو؟ من الباب الأول أم الثاني أم الثالث، إلى آخره. وإذا علمت أن في العربية ستة أبواب، أدركت معنى صعوبة القراءة التي أتحدث عنها. ويستوي في عدم معرفة القراءة الحقيقية أكبر الأدباء وأصغرهم. ولقد سمعت حديثاً لطله حسين يقول فيه: «نحن نعجز عن أن نفهم... إلى آخره». فكلما عجز لا تعرفها العربية بالمعنى الذي أراده طه حسين. عَجَزَ يَعْجُزُ بمعنى العَجْز هي من الباب الثاني وهذا المعنى أراده طه حسين ولم يلفظ كلمته بشكل صحيح. أما عَجَزَ يَعْجُزُ بمعنى العَجْز، والعَجْز هو الأرسح، والأرسح من لا عَجْز له، أي لا مؤخرة له فهو أرسح. وعَجَزَ يَعْجُزُ بمعنى زالت عجزته. وهذا المعنى لم يقصده طه حسين ولكنه لفظ كلمته. وامرأة عجوز فهي من العَجْز الذي يقصده طه حسين، أي عدم القدرة. وكما ترى فطله حسين أراد معنى معيناً ونطقه بتغيير حركة عين الفعل، مما أدى إلى معنى آخر.

المهم أنك إذا أردت قراءة صحيحة، لا بد لك من أن ترجع إلى عين الفعل، التي يجب أن تكون صورتها لديك واضحة. وإلا فإنك لا تحسن القراءة. وعين الفعل هذه لا يمكن أن تتوضح كما ينبغي لأنها

تهجم أعلى. ولكن الصحيح هو أنك عندما تقول في عنفوان شبابه فإنك تعني، في أولية شبابه. وإذا قلت أيضاً: في عنفوان شيخوخته بمعنى أولية شيخوخته، أي عندما قارب الخمسين من عمره، فأنت تستعمل الكلمة بمعناها الصحيح.

- يصف مارون عبود كتابكم «مقدمة لدرس لغة العرب» بأنه استمرار لأمهات الكتب العربية القديمة والمهمة. إنه استمرار وتجديد. وفيه ملاحقة لقضايا العصر كانت معدومة قبل هذا الكتاب.

- ما تقوله صحيح، وهذا ينجلي واضحاً لمن يتحقق الكتاب. لا لمن يتبع فيه دراسة عجل. لأن، من أهم فصول الكتاب، ذلك الفصل الذي يترك الجانب المستقبلي للعربية. وهو بعنوان «داء العربية ودواؤها، أو فكرة تخصيص الموازين». كما أنه في الحديث عن ماضي اللغة تجد اكتشافات هائلة جداً. إلى درجة أن الأب إنستاس الكرملي لم يتورع، يوم نُشر الكتاب، وكان يومها في دورة من دورات المجمع في سنة ثنائي وثلاثين، من أن يكتب في الأهرام مقالة عن الكتاب، حين صدوره، يقول فيها: «قرأت هذا الكتاب الثمين فألفيته، يفتح أبواباً في العربية كانت تلامس إلى هذا اليوم».

والحديث عن مستقبل اللغة بهذا الشكل يحتاج: أولاً، إلى جرأة. والمؤسسات الرسمية لا تتحل بالجرأة أبداً. فكل شيء تطبع بالطابع الرسمي، أو تشكّل به، معناه أنه فقد عنصر الجرأة والمبادرة، لأنه يتحاشى الاحتدام. ثم أنه لا بد من توفر بارقة الأفكار. ثانياً، والفرد يملك هذه البارقة ويملك الهجمة على ابرازها. بينما المؤسسات الرسمية تعمل دراسات وآفات وغيره. لذا لم تعتمد النظريات التي في الكتاب رسمياً. ولو أنها اعتمدت لحلت كل عقد اللغة العربية. لأنني تتبع مسار تطوّر اللغة العربية في الماضي فانتبهت

كلمة سماع. وضربنا المثل بَعَجَزَ يَعْجَزُ، لتدرك ان ضبط القراءة لعين الفعل هي مشكلة كبرى من مشاكل العربية. والناس لا تشعر بهذه المشكلة لأنهم يلفظون الفعل كيفما اتفق، لا بالتدقيق الكامل.

ولقد توصلت، أنا، إلى ضبط أبواب عين الفعل، بعد التتبع شبه الإحصائي لجميع المعاجم العربية، لا سيّما الأمهات منها، وانتهيت في كتاب «مقامة لدرس لغة العرب» إلى أن العربية كادت أن تتوحد في الباب الثاني. أي باب ضَرَبَ يَضْرِبُ. ولقد تبين لي في تتبعي للمعاجم، أن كل ما جاء على باب ما في العربية يصح فيه الباب الثاني. فاعتبرت أن العربية كانت تستقر على الباب الثاني، باب ضَرَبَ يَضْرِبُ. فمثلاً نَصَرَ يَنْصُرُ تصبح نَصَرَ يَنْصُرُ. ولم لا؟ عندها نَحْتَزِلُ الأبواب الأول والثالث والسادس وتندمج في الباب الثاني. ويصبح هذا قاعدة عامة.

- ألا يتعارض هذا مع القرآن الكريم؟

- طُرح عليّ هذا السؤال. وأنا أيضاً تساءلت به. ولقد رأيت بأنه لا يتعارض مع القرآن الكريم. ذلك لأنني أتكلم عن العربية في مستقبلها، في صيرورتها. لا عن العربية في ماضيها. فالنصوص القرآنية وما إليها ذات القداسة المعينة، وكذلك الشعر الجاهلي عامة - وغيره، كل هذا يُقرأ كما هو، لا كما أَدْعُو إليه. يقرأ كما ورد. وهذا ليس بغريب. فأنت ترى اليوم في الدراسات الأدبية، ان الذين يدرسون شكسبير، يدرسونه في لغته التي تكلم وكتب بها. مع أن الانكليزية، منذ عهد شكسبير، أي عهد اليزابيث الأولى وحتى اليوم، قد شهدت تطوراً هائلاً. وأنا لا أقصد القراء العاديين، بل المتخصصين الذين يهتمهم تعبير شكسبير، عندها يقرأون الانكليزية كما كانت في عهد شكسبير. وأنت كذلك تقرأ القرآن كما أنزل في حينه. فبرغم من هذا التطوير في العربية، يبقى القرآن الكريم، والشعر الجاهلي وما إلى ذلك، وحتى

الشعر بشكل عام، يُدرّس ويُقرأ كما كان في وقته. أي في العهد التي كانت تُحترم فيها هذه النصوص، والتي كانت تقصد لذاتها. هنا يمكن أن لا تجد فيها ارتأيت تعارضاً مع القرآن الكريم. بمعنى أنه عندما تتناول القرآن الكريم فإنك تتناوله بالنص ذاته دون تغيير فيه. وعندما تضع شيئاً للمستقبل تضعه حسب الباب الذي قلنا أن العربية ستستقر عليه، وهو الباب الثاني.

وأنا لم أعتد في هذا على ملاحظتي فحسب أو على الإحصاءات التي قمت بها. بل تتبعت في هذا أيضاً أقوال العلماء الماضين. فوجدت أن إماماً كأبي زيد الأنصاري يقول: إذا أنت جاوزت المشاهير من الأفعال، فأنت بالخيار بين الضم والكسر. يعني بين الباب الأول والباب الثاني. نَصَرَ يَنْصُرُ. ونَصَرَ يَضْرِبُ. بعد حين نجد إماماً كالقراء يقول: والباب الأصل الباب الثاني. هذا معناه ان العربية كادت تقفز إلى أن تستقر على الباب الثاني في الدلالة على الفعلية، على التلبس في الحالة الفعلية. دلالة الفعل هو التلبس بالحركة المعينة. أكل يأكل... كيف أكل... إلى آخره. يعني حالة الأكل... شيء من هذا النوع هو ما يسمونه التلبس بالحالة الفعلية، وهو الدلالة الفعلية.

بعض الأبواب تضيف دلالات ثانوية على الحالة الفعلية، وهي الباب الرابع والباب الخامس. هذان البابان لم أَلْغِهما في اقتراحي في كتاب «مقدمة لدرس لغة العرب» فقلت أن هذين البابين يحتفظ بهما للدلالة على حالات معينة وخاصة للفعل. فمثلاً الباب الرابع باب فَعَلَ يَفْعَلُ، فهو زيادة على الحالة الفعلية، يدل في العربية على التغير. كان القدماء يسمونه باب الطرود والعدم. فهو باب التغير والتلون، باب الخلو والامتلاء. مثل عَلِمَ يَعْلمُ، جَهَلَ يَجْهَلُ. عَلِمَ يَعْلمُ. امتلاء، جَهَلَ يَجْهَلُ خلو. ظَمِئاً يَظْمَأُ خلو، شَبِعَ يَشْبَعُ

- هل التزمت أنت بهذا؟

- لا. لا أستطيع أن ألزم بهذا وحدي. الأمر يحتاج إلى العرب، وكل الذين يشتغلون في المضمار اللغوي، ليقرّوا هذا الأمر. أنا اقترحت اقتراحاً. وتبقى الموافقة عليه كي يصبح معتمداً.

واحتوى أيضاً كتاب «مقدمة لدرس لغة العرب» من أمهات ما اقترحت، قضية الإعلال، فانت مثلاً تجمع قضية على قضايا، وعشية على عشايا... وغيره. وهذا الجمع هو من باب الإعلال. وقضية الاعلال هذه لها في العربية قواعد لها أول لكن لا آخر لها.

ولحل هذه الأمور، وعوض أن تجعل جمعها إعلالاً ذي قاعدة ما، اقترحت أنا جعلها كلها في باب الإيتباع. بمعنى أنك اتبعت حركة كالفتحة مثلاً مدّاً معيناً فنشأت منها الألف. فهذا إيتباع. والإيتباع في العربية باب مطرد بشكل غريب، حتى في ضبط الشكل. مثلاً، منْخِر، تعني في العربية فتحة النفس. ولذلك يقال منْخِرِين، أي فتحنا النفس. فالفرد منْخِر، والمثنى منْخِرِين. وهذا يلفظ في العربية الشائعة. إلا أن بعض القبائل العربية كانت تنطقها بكسر الميم، منْخِر. فقال اللغويون القدامى أن هذا الأمر هو من باب الإيتباع. أي أنك اتبعت حركة الميم لكسرة الخاء إيتباعاً، فكسرت الميم وأصبحت الكلمة، منْخِر. وحركة الإيتباع هذه نراها في العربية بشكل هائل... في الحركة... في المدود... لذلك وجدت، أنا، أن ثلاثة أرباع الإعلال، وحتى الاعلال كلّ ممكن إلحاقه بالإيتباع. وهذا بالطبع حسب نماذج معينة. وهذا الموضوع لم يتكلم فيه أحد من قبل.

ثم إن الإيتباع هذا، لا يقع إلا فيما وقع فيه الاعلال. مثلاً: الفعل مطى يبطو، اشتقوا منه كلمة مطية وجعوها على مطايا. وكذلك قضية جُمعت على

امتلاء... وهلم جرّاً. هذا الخلو والامتلاء هو دائماً من الباب الرابع. لذا أبقيت على هذا الباب. فعندما أريد الدلالة على تغيّر ما في الحالة الفعلية، أنطق الكلمة بشكل آلي من الباب الرابع، باب التغير مطلقاً. وعندما أريد الدلالة على الرسوخ الكامل وعدم التغير أنطق الكلمة من الباب الخامس، باب حَسَنٌ يَحْسُنُ فهو حَسَنٌ، كَرَمٌ يَكْرُمُ فهو كَرِيمٌ، جَمَلٌ يَجْمَلُ فهو جَمِيلٌ... إلى آخره. فالباب الخامس هو باب الدلالة على الطبيعة والسجية والرسوخ مطلقاً. فهو عكس الباب الرابع.

هذان البابان لا يُستغنى عنهما. إلى جانب الباب الأصلي، أوسع الأبواب، باب ضَرَبَ يَضْرِبُ أي الباب الثاني. فكلما أردت الدلالة على حالة فعلية والتلبس بها، نطقت الكلمة من الباب الثاني. وعندما تريد، زيادة على هذا، تغيّراً نطقت بها من الباب الرابع. وإذا أردت رسوخاً نطقت بها من الباب الخامس.

هكذا تصبح الأبواب آلية، والنطق بالكلمات يتم بشكل عفوي. عندها لا تحتاج العربية إلى بقية الأبواب، تستغني عنها، كما استغنت في الماضي عن كثير من الأبواب قبل الإحصاء الصرفي وجعلته في ستة أبواب. هكذا يصبح الأمر قياسياً، لا يحتاج معه لمراجعة المعاجم اللغوية لمعرفة حركة عين الفعل. صعوبة العربية الآن يتمثل في أن عين الفعل تحتاج منك مراجعة كل فعل، وإلا فإنك لا تحسن القراءة كما ينبغي. وهذا يتطلب منك أن تطلع على المعاجم بشكل دائم لمعرفة هذا الفعل من أي باب هو؟ وهذا ثقل لا يمكن القيام بمثله أبداً، ولا سيما في عربيتنا، لذا اقترحت في كتاب «مقدمة لدرس لغة العرب» اعتماد هذا الأمر وكيف يمكن أن نجعله قياسياً مضطراً لا يحتاج معه للرجوع إلى المعاجم اللغوية في كل شيء. وهذا يتم بالاستقرار على الأبواب: الثاني والرابع والخامس كما ذكرنا وإطلاق هذا قاعدة عامة.

«حُبْك». ولقد بينت أن المشكلة فيها وفي غيرها من الأمور تحل بقضية الإتياع..

ثم إنني أوضحت وشرحت مطوّلاً هذه الأمور في كتاب «مقدمة لدرس لغة العرب» لأبرهن على أن قاعدة الإتياع تستطيع أن تحل محل الإعلال في جميع ضروبه وأشكاله، وعلى أنه يمثل قانوناً عاماً. وذلك لأخفف من صعوبات تلقي اللغة العربية عند الذين يشكون من صعوبتها. والإعلال هذا هو من باب الصعوبات بلا ريب.

- على ذكر اللهجات، أليست لهجة قریش هي أفصح اللهجات العربية؟

- نسيباً، وليست قریش بالإطلاق. لأن قریش كانت متهمّة في لغتها باعتبار أنها كانت عمراً تجارياً، ولها رحلة الشتاء والصيف وما إلى ذلك من تزواج فيها للغات والحضارات، وإن كانت حضارات عابرة.

- كانت قریش تمثّل المدينة، وبالتالي فهي مركز اختلاط مع الشعوب الأخرى. وعند تجميع اللغة وتنقيتها على أيدي النخبة، واعتماد الصالح منها، اعتمدوا لغة القبائل لما تمثله من نقاوة، وابتعدوا قدر الإمكان عن لغة المدينة لما تحمله من لحن واختلاط. فما رأي الشيخ عبدالله هذا القول؟

- ليست القضية قضية لغة المدائن. لأنه أساساً، في الجاهلية، لا يمكنك القول بأنه كان عند العربي مدينة معينة، بالمعنى الذي نطلقه اليوم على الكتلة التي تمثل المدينة. كانت عبارة عما يسمى اليوم بالبندر أو الدسكرة، لا المدينة كما ينبغي أن تكون.

- لكن مكة بالتحديد كادت أن تكون مدينة.

- لا. الاهتمام بمكة كان لصفاتها الدينية أكثر منه لأي شيء آخر.

- ألم تكن مكان تجمع بشري، وبالتالي مكان التقاء

قضايا ومثله خطية وخطايا، وعشية وعشايا.. إلى آخره. كل فعل يجمع على نفس وزنه. ولكن كيف جمعت بادىء بدء؟ وكيف جرى الإعلال لمطية التي هي في الأصل مطيوه، على وزن فعيلة. فهي اشتقاق من فعل مطا يطور. ووي اللام تصبح مطيوه. المتربّعون للكلمة العربية يقولون بأن الواو كلما اجتمعت مع الياء الساكنة تنقلب الواو ياءً وتُدغم في الياء. فمطيوة اجتمعت بها الواو مع الياء الساكنة فانقلبت الواو ياءً ودُغمت بالياء فأصبحت الكلمة مطية، ومن ثم جمعت على مطايا. وهي في الأصل لا تجمع على مطايا، لأن فعل يجمع على فعائل فالأخرى لمطيوه أن تجمع على مطايول. هنا يدخل الإتياع، وعوض أن تقول قاعدة: كلما اجتمعت الواو مع الياء الساكنة تنقلب الواو ياءً وتُدغم في الياء، نكتفي بقاعدة الإتياع التي تلغي مبدأ الإعلال بكل ما يحمله من قواعد لها أول وما لها آخر. وأنا في مقترحاتي بينت كيف يكون الإتياع.

الآن، لنأخذ الآية الكريمة في القرآن الكريم. «والسوء ذات الحُبْك» كلمة الحُبْك هي من أفصح الكلمات. لكن قديماً كانت تلفظ حِبْك وحِبْك وحِبْك... ومن ثم اكتملت صورتها لتصبح كما في القرآن الكريم حُبْك. كيف انقلبت هذا الانقلاب؟!

اللغويون القدامى عللوا هذا الانقلاب بتداخل اللغات. أي أنه اختلاف باللهجات القبائل تداخل مع بعضه فتولد من تداخله لفظة حُبْك. إنه تعليل أجوف وافتراس هزيل لا قيمة له، وكلام فارغ لا معنى له. فالحقيقة أنه حالة تطويرية لا أكثر ولا أقل، هذا ما قلت به وأعلنته. فالقبيلة التي هي أقل تطوراً نطقت الكلمة بالكسر حِبْك. والثانية الأكثر تطوراً من الأولى نطقت بها بالكسر والسكون حِبْك والثالثة نطقت بها بالكسر والضم حِبْك إلى أن وصلت إلى تطورها الأسمى واكتملت صورتها فأصبحت قرآناً

تجاري لشعوب ومناطق مختلفة.

- نعم كانت مكان التقاء، لكنه التقاء عابر جداً.
فهل أثر في صميم اللغة العربية أم لا؟ هذا التساؤل لم يجاب عليه. لكن المؤكد أن لغة قريش أبعدت عن أن تكون اللغة المرجع؛ بل اعتبروها أي اللغة المرجع، مؤازرة من قبائل ستمة. لغة تميم لغة قريش. . . وغيرها. فلقد اختار النحاة القدامى، أي نحاة البصرة ونحاة الكوفة، ست قبائل جعلوها القبائل المعتمدة في خطوطهم المهادفة لتنظيم وتطوير الدراسات اللغوية.

- ما السمات الأساسية لكل من مدرسة الكوفة ومدرسة البصرة؟ وما الفرق بينهما؟

- بين نحاة البصرة ونحاة الكوفة الفرق كبير فهو يشمل كل شيء في مضمار اللغة. والحديث عنه يستوجب جلسة خاصة، ولا مجال له الآن. فلنكمل حديثنا بما كنا قد بدأناه.

ومن جملة الاقتراحات التي أعطيتها لتنقية اللغة العربية من بعض صعوباتها، قضية المذكر والمؤنث. ففي اللغة العربية، شيء يسمى بالمذكر والمؤنث المعنويين. بمعنى أن لفظه مذكر وعودة الضمير مؤنثة. كلفظة، الدرع. هو أم هي؟ نقول هي الدرع. البئر هو أم هي؟ هي البئر. . . إلى آخره. هذه الكلمات يجب أن تحفظها. ولقد نظمت هذه الكلمات وضبطت على أيدي أئمة كبار في اللغة. منهم الفراء، ومنهم الأخفش، ومنهم المبرد وعدد عديد غيرهم. والطريقة الوحيدة لمعرفة المذكر والمؤنث من هذه الكلمات هي الحفظ ولا سبيل لك غيره.

كما أحصى القدامى أيضاً كلمات يصح فيها المذكر والمؤنث كالبطن، تعيد عليها هو وهي. فتقول: هي البطن وهو البطن وغير ذلك من الكلمات المشابهة. وهذه سبيل معرفتها الحفظ أيضاً. ولقد شاع، مثلاً، بين المصريين خاصة، أن كلمة الرأس يصح فيها

التذكير والتأنيث. فتقول هو الرأس وهي الرأس. وهذا خطأ فالرأس هو مذكر ولا يصح فيه التأنيث. ولقد شاع هذا الخطأ حتى بين أقلام الأدباء. وهذا دليل على أن هذه الكلمات تستوجب الحفظ لمعرفة ما يصح بها من تذكير أو تأنيث.

ولقد تبعت أنا ما كتب قديماً في موضوع المذكر والمؤنث فوجدت ما فيه توحيداً للعربية مع اختلاف قبائلها. وهو ملاحظة أبوسعقوب ابن السكيت، صاحب كتاب «تهذيب اللغة». وهو إمام من أئمة اللغة، يقول ابن السكيت في ملاحظته: «إن العربي ليجرؤ على تذكير ما ليست فيه علامة». وأخذاً بهذه الملاحظة نُحِلَّ المشكلة، وتصبح النتيجة أنه يتحتم إتباع علامة التذكير والتأنيث دائماً، وما ليست فيه علامة فهو مذكر مهما كان في الماضي. وبقيت ملاحظة لأنها لم تعتمد كقاعدة، ولقد جرؤ العربي القديم مثلاً على تذكير كلمة العين لأنها لا تحمل علامة التأنيث. فناديت أنا باعتماد هذه الملاحظة وجعلها قاعدة وتذكير ما ليس به علامة من علامات التأنيث وهي: التاء والألف المقصورة والممدودة.

فكلمة شمس مؤنثة. لكن مَنْ أَثْنَاهَا أَثْنَاهَا أَتْبَاعاً. لكن من جرؤ على تذكير العين ذكَّرها خلَّوْها من علامة التأنيث. وقديماً كان التذكير والتأنيث يتم بناء على فرضيات في أخيلة الناس. كانوا يعبدون الشمس كأم فأنشوا الكلمة. وكذلك الأرض اعتبرت كأم فأنثت الكلمة. وهكذا إذا تحرَّينا تماماً الكلمات التي من هذا النوع، وفي كل اللغات، نرى أنها تدخل في خاتمة تصوراتها الفطرية والعبادية. كلُّها منطلقة من عبادات ومناسك. «المطر» إله آب في أخيلة القدامى حملتها اللغات كلها، وفي اللغات الآرية نجد جذور كلمة «مطر» مثلة في الأم. فكلمة ماطر كانت تلفظ في اللاتينية القديمة بالتاء والطاء فترجع الكلمة إلى مطر. فالعنى الذي كان للفظه يرمز إلى الأمومة إلى مؤنث إلى إلهة.

ذكرت الذين تناولوا الكتاب، من آزر ومن اعترض، في المقابسات التي أثبتتها في الأجزاء. فقد كنت، مع كل جزء أو قسم يصدر، أثبت ما علق على القسم الذي قبله تحت عنوان «مقابسات».

أما في مصر، فكان صدى الكتاب، ضجة كبرى في مجمع اللغة العربية آنذاك، في سنة 1938. ولقد ذكرت لك كلمة الأب انستاس الكرملي. وفي الصحافة المصرية كان له مؤازرة هائلة. حتى ان اسماعيل مظهر، وكان قمة من قمم البحث اللغوي، أبى إلا أن يقدم هو للكتاب. كانت المبادرة منه شخصياً وليس بناءً على تكليف مني. وكذلك موقف اللغوي الكبير، صاحب القاموس العصري، الياس انطون الياس الذي طبع الكتاب في مطبعته. وكتبت عنه، وفي أول صدورها، جريدة «المصري» كتابات رفعت إلى السماء. ولقد كنت أحتفظ بهذه الكتابات لحين من الزمن ثم تضيع مني هنا وهناك.

- هذا الإطار، ماذا يعني لك بندي الجوزي؟ هل قرأت له؟ بندي الجوزي الفلسطيني، إطلعت في أوائل الثلاثينات على كتابه «الحركات الحاسمة في التاريخ الإسلامي». وكان أستاذاً في روسيا القيصرية، وهو لم يدرك الإنتفاضة الشيوعية بل كان قبلها بمدة من الزمن، أي في أواخر القرن التاسع عشر. وكان نشاطه الفكري كبيراً، دون ريب، ولقد أعجبت أيضاً بكتابه «الأومة» الذي ترجمه عن الألمانية بلهجتها الفلمنكية، لأن مؤلفه فلمنكي هولندي، والترجمة كانت جيدة ومهمة، تتجلى فيها أمانة المترجم بشكل غريب. لقد كان مفكراً كبيراً.

- شيخ عبدالله؛ ألا يتعارض مشروعك لتطوير اللغة العربية مع القرآن الكريم، فيترك المسلمين بغربة عن لغة القرآن، بينما المطلوب أن يبقى القرآن ولغته في إلفة مع الناس، فيصبح سهل المتناول والفهم؟

المهم ان قضية التذكير والتأنيث كانت تدور كلها في مدارات تثبت في هامش معنى الكلمة معتقدات دينية عبادية. وهذه المعتقدات رحلت وانتهت. فانتقلت الكلمة إلى معتقدات أخرى.. وربما زالت عنها هذه المعتقدات بالكامل. إذن التذكير والتأنيث كانا يرمزان إلى مرحلة من مراحل التطور الحضاري، والفكري، لا أنه شيء من صميم الكلمة. وإلا فمن أين جاء التذكير والتأنيث؟

- الآن وفي سنة 1988، هل يرى الشيخ عبدالله صدى لما أعلنه سنة 1938، بين اللغويين؟ بمعنى آخر هل هناك أحد من اللغويين المعاصرين قد تبني واعتمد هذه الآراء اللغوية أو دعا إلى اعتمادها أو تابع مسار البحث فيها؟

- أنا. واجبي اني دعوت ونشرت ما رأيته جيداً ولازماً لتطوير العربية. ثم أكدت ما دعوت إليه عبر مقالات ومحاضرات عديدة. لكن كونها وجدت متابعين لها أم لم تجد فهذا شيء آخر.

ولقد آزرها كثير من الناس في العراق وغيره من البلاد العربية. ولا سيما في المغرب. فالمغاربة، بصورة خاصة، كانوا من أكبر الذين اعتمدوا النتائج التي وصلت إليها وأطلقتها، إن كان في كتاب «مقدمة لدرس لغة العرب» أم في المحاضرات والمقالات التي كنت أنشرها.

- هل من أسماء معينة من الذين آزرُوا دعوتك هذه، على صعيد المغرب أو الجزائر أو تونس أو مصر؟

- كان هناك في المغرب مجلة اسمها «اللسان العربي» كانت تعتمد كل ما اطلقته في باب المعاجم. فعندما كتبت عن المعجم الكبير جعلته آية من الآيات، المعجم الذي صدر قسم منه في سنة 1954 لقد كانوا مفتونين به. وكذلك أيضاً في تونس. ولقد

- هذا لا ينتج غربة مع القرآن، والفتحة والكسرة لا تغيران الفهم. والقراءات فيها الفتح والكسر، وأنت تقرأ الكل.

سيحتاج الأمر إلى إعادة تشكيل للقرآن. ثم أن هناك قضية المذكر والمؤنث. «والشمس تجري لمستقر لها» الشمس مؤنثة وأنت تقول بتذكيرها...

- لا! أنت تشكّل القرآن هكذا، والمغاربة يشكّلونه بشكل آخر. وبالنسبة لتأنيث الشمس فأنت تحفظها قرآنياً كما وردت. وهذا لا يتغير. هذا من النصوص التي تُحترم لذاتها.

- ألا نكون، بهذه الحالة، قد وضعنا القرآن في مكان عالٍ لا يصل إليه إلا القلة من الناس؟

- لا! انك تستطيع أن تصل إليه، فالنصّ هو النص، لكن لهجة النصّ اختلفت، لا أكثر من ذلك.

- أؤمن الممكن القول بأن كتابك «مقدمة لدرس لغة العرب». أعطى نموذجاً لمسألة التطور التاريخي على صعيد اللغة. ومن ثم أعطى معنى للحركة الاجتماعية آنذاك بعلاقتها الخارجية والداخلية؟

- المنطلقات الفكرية كانت كذا وأدت إلى كذا... هذا كله يبقى من وجهة نظرية صرفة. لكن أنا أريد تطبيقها من وجهة عملية. ولقد ناديت في الناس أن يعتمدوا هذه النقلة بالذات، كما اعتمدنا نحن نقلة الكوفة والبصرة. وهذه النقلة «نقلة الكوفة والبصرة» لم تكن تعرفها قبيلة قريش ولا قبيلة تميم. إنما تعرفها البصرة والكوفة لا أكثر ولا أقل، ولقد تعبدنا نحن للأصالة التي زعمناها فيها. إنما هي كانت مجرد نقلة، ونحن زعمنا لها الأصالة. والنقلة التي أطلبها، أنا لا أطلبها كي لا تجمد اللغة فحسب. بل لأن اللغة كلما كانت ذات حركة دينامية، وفاعلية ذاتية، كلما عاشت أبداً.

- مدرستي الكوفة والبصرة، هل يمكن أن ترى فيها صراعاً سياسياً أدى بشكل ما للسيطرة التركية؟

لا أبداً، السيطرة التركية جاءت متأخرة كثيراً. ثم أنه في العهد التركي ماتت كل أصالة. وحتى الصراع المذهبي ما بين سني وشيعي، الذي حصل قبل السيطرة التركية، لم يتأثر بالمدرستين النحويتين. لأن هذا الصراع قوّي واحتدم بعد المدرستين بكثير. إنما هو صراع لغة للتحقيق فقط. هذه المدرسة وصل إليها مقدار من النصوص والأصول وتلك المدرسة وصل إليها مقدار آخر من النصوص والأصول. والمدرستان اللغويتان لم تتأثرا بالحركة السياسية آنذاك، بل تأثرتا بالحركة الفكرية فقط.

- بهذا المعنى، هل يمكن الفصل ما بين اللغة والحركة الاجتماعية والسياسية؟

- لا يمكن أن تفصل بينهما، لأن هذا كله مترام على صعيد الفكر وعلى صعيد الحياة. لكن القضية ليست قضية فصل، بل قضية زمن. كل ما في الأمر أن الصراع جاء بعد المدرستين. فلا يمكن أن تقول أن المدرستين قد تأثرتا به. مثلاً، قبل الاسلام كان هناك حركات قريبة منه، فإنك لا تستطيع أن تقول، أن هذا حصل بفضل الاسلام، لأنه حدث قبله. وبغض النظر إذا تأثر بها الاسلام أم لم يتأثر، فإنها تمثل جزئيات صغيرة جداً. فهل نحملها للإسلام، ونقول بأنه قد تأثر بها، ذلك لأن الاسلام جاء بشيء كبير جداً؟

فأنا إسلامياً، عندما أعطي كبريات الأمور، لا أمسك الصغير جداً منها على أن ديوجين، مثلاً، قال به قبلي. وهكذا الأمور بالنسبة للمدرستين النحويتين. وهذا يذكرني بحادثة جرت مع أحد شيوخنا، الشيخ محمد السملوطي، إذ كان يدرّس «تفسير»، ووصل في درسه إلى الآية الكريمة «ويوم يُنفخ في الصور». فبدأ الشيخ يتحدث حول مفهوم

إلتباس موقع لها، بأنها واو الثمانية، لانه في تعداد أهل الكهف «... وثامنهم كلبهم» الواو لا محل لها من الإعراب.

أجرى الحوار وقدم له: فرحان صالح
علي سرحان

النفخ، ومفهوم الصور، وهل هو كيان؟ وما إلى ذلك... فيقطع عليه أحد الطلبة حديثه ليسأله عن الواو في «ويوم ينفخ» ما هو م موقعها الاعرابي؟ فقال الشيخ: يا هذا! تركت الصور كله وتعلقت بالواو التي لا محل لها من الاعراب. والواو لا محل لها نحوياً في الآية إلا من حيث هي عطف جمل أو عطف نسق... ولذلك قال النحاة عنها، لما عجزوا عن

الحواشي

- (1) هذه المقابلة هي جزء من كتاب سيصدر قريباً عن دار الحداثة تحت عنوان: «عبد الله العلايلي: آراء في اللغة والتاريخ والفكر والسياسة».